تاريخ الاستلام: 2016/08/07 -تاريخ التحكيم: 2016/10/26 -تاريخ النشر2016/12/30

النشاط العلمي والثقافي للزاوية التجانية بقمار، خلال القرنين19و20م.

أ.عقبة السعيد

جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص:

تناولت الدراسة الدور العلمي والثقافي للزاوية التجانية بقمار، التي تعتبر أول زاوية في تاريخ الطريقة التجانية حيث تأسست سنة1204هـ/1789م، وسنتطرق من خلال هذه الدراسة للنشاط الفكري والثقافي الذي قامت به هذه الزاوية والمتمثل في الحفاظ على القيم العلمية والحضارية للمجتمع، والاعتناء بالتعليم بمختلف مراحله والتركيز على تعليم القرءان الكريم، والاهتمام بمختلف العلوم الشرعية واللغوية، فكانت مركزاً مهماً من مراكز الإشعاع الثقافي في الجزائر وخارجها.

الكلمات المفتاحية:الزاوية التجانية، التعليم القرءاني، الكتاتيب، النشاط الثقافي، الرحلة العلمية، العلوم الدينية واللغوية.

Abstract:

This article examines the scientific and cultural roles of ZAOUIA TIDJANIA in Guemar, Which is the first Zaouïa in the history of the way in1204 h / 1789, And we will try through this study to identify the leading roles and stature it is to maintain the values of the Islamic community, it's interest in various kinds of education, Zaouïa Tidjania focused on teaching the Koran And various care of forensic science and Arabic linguistics It was the focus of attention of the Algerian science centers and it was known by it's scientific and intellectual activity in Algeria and outside Algeria.

مقدمة:

إن المتأمل لدور الزوايا قديما وحديثا، والباحث المنصف في تاريخها لا يسعه إلا الاعتراف بدورها الريادي في النهضة العلمية والحضارية والمحافظة على قيمنا الإسلامية إبان الاحتلال الفرنسي، حيث كان و لا يزال لهاته الزوايا رسالة سامية، وعمل نيل تمثل في المحافظة على الإسلام و تعاليمه، وذلك بالتركيز على تعليم القرآن الكريم، و العناية بشتى العلوم الشرعية واللغوية.

ولم تكتف الزوايا بالاهتمام بهذا الجانب، بل تعداه إلى الجوانب الاجتماعية حيث أصبحت مقصد عابري السبيل و دار القضاء التي يُفصل فيها النزاعات، و مقصد الأعمال الخيرية التي تعتني بالشؤون العامة للمجتمع، حيث أدّت دورا دينيا وتعليميا واجتماعيا متكاملا.

أولا: التعريف بالزاوية التجانية بڤمار:

يعود تأسيس الزاوية التجانية بڤمار إلى سنة 1204هـ/ 1789م، و قد تم تأسيسها على يد مقدم الطريقة السيد محمد الساسي القماري(سكيرج،أ.2014: 595)، وذلك بأمر من مؤسس الطريقة التجانية الشيخ سيدي أحمد التجاني(الحجوجي،م:03).

وتعد الزاوية التجانية بڤمار أول زاوية في تاريخ الطريقة التجانية، حيث بنيت على القواعد التي خطها سيدي محمود التونسي9م x9م أي بمساحة81م^2، حيث تؤدى فيها الصلوات الخمس والأذكار الجماعية وقراءة القرآن الكريم.

وقد شهدت الزاوية التجانية بڤمار توسيعات كبيرة ومتعددة، بفضل أبناء الخليفة الشيخ سيدي الحاج علي التماسيني(ابن المطماطية،م:01) والتي اسْتَهلّهَا نجله الشيخ محمد العيد الأول (1815-1875م) (غريسي،ع.2013: 13) الذي قام بالتوسعة الأولى للزاوية، وذلك بتأسيسه لمسجد الزاوية المعروف «بمسجد سيدي أحمد عمار»، و بجانبه المقر الاجتماعي في طابق علوي هو الأول من نوعه في منطقة سوف (Tijaniya,T.2008:22)، ثم توالت التوسيعات بالزاوية بعد ذلك والتي قام بها كل من الشيخ محمد حمة (1844-1912م)(الحجوجي،م.2013: 2257) الخليفة الرابع للإمام التماسيني، والذي أسس مقراً جديداً للزاوية مدخله الدار الخضراء، و قام ابن عمّه محمد العروسي بن الشيخ محمد الصغير (1852-1920م) (الحجوجي،م.2013: 2256) بتأسيس مجمعاً عمرانياً لاستقبال الضيوف زينه بقبة هرمية الشكل، وبالعديد من الزخارف و النقوش البديعة والملونة، أما أخاه محمد العيد(1865-1921م) فقام هو الآخر بتشييد منزل كبير مخصص للتدريس بجانب المجمع الذي أنجزه أخوه محمد العروسي والذي يعرف «بحوش أسيادنا».

وفيما يتعلق بالدور الاجتماعي للزاوية، فقد ساهمت الزاوية التجانية بقمار في الحفاظ على النسيج الاجتماعي في المنطقة وذلك من خلال التكافل الاجتماعي، فالزاوية كانت تفتح أبوابها للمحتاجين والفقراء و عابري السبيل خاصة في أوقات الأزمات وفي الأعياد والمناسبات المختلفة.

كما ساهمت الزاوية التجانية بقمار في نشر روح التسامح و التراحم بين الناس عملا بالكتاب والسنة، ووصايا مؤسس الطريقة الشيخ أحمد التجاني و خليفته الشيخ الحاج علي التماسيني، وإصلاح ذات البين وحل الخصومات والنزاعات بين الناس(التجاني،ص.2015: 73).

وما تزال الزاوية التجانية بقمار اليوم محافظة على نشاطها، فهي تحتوي على مدرسة قرآنية تعتني بتحفيظ القرآن الكريم وتؤدى فيها الصلوات الخمس، وصلاة القيام في شهر رمضان المبارك، وما زالت منذ نشأتها محافظة على حلقات الذكر المعروفة في الطريقة التجانية (الوظيفة و الهيللة)، والقراءة الجماعية للقرآن الكريم كما تلقى بها دروس دينية في علوم الشريعة والتصوف، كما تحيي الزاوية التجانية بقمار المناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وليلة القدر وذكرى الإسراء و المعراج، حيث تلقى فيها القصائد الدينية التي تحث على حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته وصحابته رضي الله عنهم أجمعين، كما تبرم فيها مراسيم الزواج، فهي بذلك تشكل معلما من المعالم الدينية و الثقافية والاجتماعية في الجزائر(عقبة،س.2012: 150).

ثانيا– عوامل نمو الحركة الفكرية بالزاوية التجانية بقمار:

عُرفت الزاوية التجانية بقمار بنشاطها العلمي و الثقافي، فكانت مركزا مهما من المراكز الثقافية المنتشرة بالمنطقة، وقد بلغ نشاطها العلمي و الفكري شهرة واسعة في الجزائر و خارجها خاصة في البلدان المجاورة كتونس و المغرب الأقصى و غيرها من البلدان، و تعود هذه الشهرة والتفوق إلى مجموعة من العوامل نوجزها فيما يلي:

أ– عناية شيوخ الطريقة بالعلم و العلماء:

لقد حث الإسلام الحنيف على العلم و التعلم، فكانت أول الكلمات التي نزل بها القرآن الكريم﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾(العلق:01-05)، وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على الاهتمام بالعلم و السعي في طلبه بقوله صلى الله عليه وسلم: « طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَىْ كُلِّ مُسْلِمٍ»(الهيثمي،أ:119)، ومن هذا المنطلق كان اهتمام شيوخ و رجال الطريقة بالعلم كبيرا، حيث كان مؤسس الطريقة الشيخ أحمد التجاني يوصي بالعلم ويحث عليه، وكان يأمر أصحابه بتحفيظ أبنائهم ما

تيسر من القرآن الكريم وتعليمهم الكتابة و القراءة(السفياني،م:96)، كما كان الشيخ أحمد التجاني نفسه من أكابر العلماء فقد حفظ القرآن الكريم حفظا جيدا و عمره سبع سنوات، ثم توجه إلى دراسة العلوم الشرعية و اللغوية والنقلية،حتى أصبح من أكابر العلماء المدرّسين(سكيرج،أ.2014: 08)، وكان خليفته من بعده الشيخ الحاج علي التماسيني حريصا على العلم و أهله، فكانت له إرادة كبيرة ورغبة شديدة في سبيل الارتقاء بالحركة العلمية، وذلك من خلال مقولته الشهيرة: « اللويحة و المسيحة و السبيحة » والتي يعني بها العلم، والعمل، والعبادة، كما قام الشيخ الحاج علي التماسيني بتأسيس مدرسة قرآنية بتماسين تعنى بتدريس القرآن الكريم وعلوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير وعلوم اللغة العربية وغيرها من العلوم(التجاني،ص.2015: 73).

وكان لشيوخ الطريقة اهتمام خاص بالعلم وأهله، سواء في زاوية قمار أو في تماسين و عين ماضي حيث قربوا العلماء والفقهاء والأدباء من جميع المناطق، فكانوا يجلسون إليهم ويحضرون مجالسهم العلمية ويدعمونهم بكل ما يحتاجونه(التجاني،ص.2015: 69).

وقد كان شيوخ الزاوية يشجعون هؤلاء العلماء على الاجتهاد في التدريس، وتنشيط الحركة العلمية و الفكرية بل كانوا يشرفون على مجالس الدروس والحلقات العلمية ويشاركون في التدريس كالشيخ محمد حمَّة (1844-1912) الذي كانت له دروس في الفقه بزاوية قمار، وابنه الشيخ محمد البشير(1861-1918) الذي كان يشارك هو أيضا بالتدريس بالزاوية (غريسي،ع.2013: 41).

ولم يقتصر الأمر على تقريب العلماء وتبجيلهم واحترامهم، بل خصصوا لهم الرواتب ليسترزقوا منها وتعاهدوا طلبة العلم بالهدايا تشجيعا لهم وإعلاءً لمنزلتهم فهذا الشيخ سيدي الحاج علي التماسيني يهدي غابة من النخيل لحفيده سيدي محمود إكراماً له على حفظه القرآن الكريم برواياته السبع.

كما قام خلفاء الزاوية باستدعاء العديد من الفقهاء و المحدثين والأدباء الذين ذاع صيتهم وعلا شأنهم العلمي من مختلف الأقطار بغرض التدريس وتكوين الطلبة كالرحالة المغربي الشيخ السعيد الدوكالي(Tijaniya,T.2008:25) الذي ساهم في التدريس بزاويتي قمار و تماسين، والشيخ عثمان النفطي(Tijaniya,T.2008:26) وغيرهم من العلماء و الفقهاء.

ب: الرحلة العلمية:

كان الاهتمام بالرحلة العلمية وما تشكله من قيمة كبيرة في التحصيل و التكوين كبيرا، فكان الإقبال على الارتحال والتنقل بين الحواضر والمدن رغبة في طلب العلم و طلبا للاستزادة الفكرية أمران مهمان،

حيث عُدت الرحلات العلمية من أهم خصوصيات الثقافة العربية الإسلامية (حوالة،ي.2000: 212).

كما كان للدين دور كبير في الحث على طلب العلم و الرحلة في التحصيل العلمي، فالقرآن الكريم اهتم بهذا الشأن كقوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:122)، كما حثت الأحاديث النبوية على طلب العلم والتنقل في سبيله مثل قوله صلى الله عليه وسلم:« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» (مسلم،ن: 1242).

لقد شهدت الزاوية التجانية بڤمار توافد الكثير من العلماء من مختلف الأقطار، كما شد طلاب العلم من أبناء الزاوية بڤمار و تماسين رحالهم إلى مختلف الحواضر العلمية خاصة إلى المعهد الزيتوني بالجمهورية التونسية، حيث أبلى هؤلاء الطلبة البلاء الحسن في سبيل التحصيل العلمي فتزودوا بمختلف العلوم وتمكنوا من العودة إلى بلادهم بالعديد من المصنفات في مختلف التخصصات العلمية (اللولب،ح.2013: 413).

وكانت فرص أداء منسك الحج تتيح للعلماء فرصة التلاقي والتحاور و التلاقح الفكري، ودعم الروابط العلمية و الثقافية بين علماء المغرب و المشرق، فهذا الخليفة الرابع للإمام التماسيني وأحد المدرسين البارزين بزاوية ڤمار الشيخ محمد حمَّة التجاني(1844هـ-1912م) لما حج مع والده سنة (1283هـ/ 1866م) التقى بمفتي الديار المصرية آنذاك الشيخ عليش(الزركلي،خ.1980: 19) فتدارس معه في العلوم الدينية وأجازه في متن خليل و موطأ الإمام مالك بن أنس(غريسي، ع.2013: 33).

كما كان العلماء يتعاهدون بعضهم البعض بالمكاتبات و المراسلات الإخوانية وحتى المراسلات الفقهية عندما يحتاجون لآراء بعضهم البعض خاصة في المسائل الفقهية، كالمكاتبات و المراسلات التي كانت بين العلامة التونسي إبراهيم الرياحي (ت1266هـ/1849م) (العلوي،أ.2014: 37)، والعلامة الفقيه لخضر بن أحمد حمانة القماري (التليلي،م: 100)، والتي ذكر بعضاً منها عمر بن محمد الرياحي في كتابه تعطير النواحي(الرياحي، ع.1902: 152).

كما كانت بين الشاعرين الأديبين محمد الصالح بن الخوصى(التليلي،م: 86)، والشاعر محمد بن البُرِّية (التليلي،م: 80) وهما من المُدرّسَيْن بالزاوية التجانية بڤمار الكثير من المراسلات الأدبية و الشعرية.

ج- التعليم بالزاوية التجانية: أنواعه، مراحله، طرقه و مناهجه:

يعتبر التعليم من العوامل المهمة لنمو الحركة العلمية والفكرية ولدفع عجلة التطور والتقدم للمجتمعات وترقيتها سلوكيا و حضاريا.

وتمثل الزاوية التجانية بقمار إحدى المراكز المهمة التي ازدهرت فيها حركة التعليم بجميع أنواعه وأشكاله، مما انعكس إيجابا على المجتمع بصفة عامة وعلى الحركة الثقافية و الفكرية بصفة خاصة.

وقد عرفت الزاوية التجانية بقمار نوعين من التعليم هما: التعليم العام، والتعليم الموجه إلى النشأ أو التعليم القرآني.

01-التعليم العام(الشعبي):

وهذا النوع من التعليم تتجلى أبرز مظاهره في التعريف بأركان الإسلام وترشيد العامة وتذكيرهم، وتعليمهم المبادئ الأولى للدين وتبيين الحلال و الحرام من أموره، وذلك بالتركيز على تدريس الفقه والحديث النبوي الشريف والتفسير، وتطور هذا النوع من التعليم بمرور الوقت حيث أضاف المعلمون والمدرسون مواد أخرى كعلم التصوف وأصول الدين والسيرة النبوية، وكانت هذه الدروس تقام في المسجد(مسجد الزاوية)، وفي عدد من الأماكن الأخرى كالحوش الشرقي و الدار الخضراء وحوش أسيادنا، وكان يقوم بهذه المهمة النبيلة مجموعة من الفقهاء والعلماء والأدباء من أبناء الزاوية وعلمائها، كالخليفة الشيخ محمد حمه (1844-1912) وابنه الخليفة الشيخ محمد البشير(1861-1918)، الشيخ محمد العروسي وأخوه محمد العيد، و الحاج علي بالقيم القماري(التليلي،م: 97)، والشيخ محمد اللقاني بن السائح الطيباتي وغيرهم من العلماء والفقهاء.

02)- التعليم القرآني:

وهو التعليم الموجه إلى النشأ بهدف تعليمهم الكتابة و القراءة وتحفيظهم القرآن الكريم كاملا أو ما تيسر منه، بالإضافة إلى الإلمام بقواعد اللغة العربية وبعض مبادئ الشريعة، كتعليم الصلاة و الصوم مع شيء يسير من علوم اللغة والنحو و مبادئ الحساب، ويوضح ابن خلدون الفرق بين التعليمين بقوله: إذا كان هدف الأول أي التعليم الشعبي هو ترشيد العامة من الناس، والوصول بهم إلى درجة معينة من الفهم والعلم التي تؤهلهم إلى معرفة الأحكام الشرعية، وتمييز الحلال و الحرام من أمور الدين، فإن التعليم القرآني هو اللبنة الأولى من التعليم الاحترافي الذي هدفه تكوين جيل من الطلبة المتخصصين في العلوم، حيث كانوا يستمرون في مزاولة الدروس والتعمق فيها، وذلك بواسطة الرحلات العلمية والتنقل للاستزادة و لملاقاة العلماء و الفقهاء وكبار الشيوخ(ابن خلدون، ع:447).

وقد عرفت الزاوية التجانية بقمار هذا النوع من التعليم وذلك منذ نشأتها، فكان هذا النوع يقام في كتّاب الزاوية أو الجامع أو ما يسمى اليوم بالمدرسة القرآنية، حيث تفتح هاته الأخيرة أبوابها مبكرا فتستقبل الطلبة مع طلوع الفجر(غنابزية، ع.2007: 73).

وأول ما يقوم به الطلبة هو كتابة ألواحهم، حيث يشرعون في تلاوتها وحفظها بعد تصحيحها من طرف المعلم، وذلك بأصوات مسموعة، وكان الطلبة في المدرسة أو الكتاب يقسمون إلى قسمين أو مجموعتين:

– المستوى الأول:

ويضم التلاميذ الصغار حيث يتم تلقينهم وتحفيظهم الحروف الهجائية العربية، ويشرف على هذه المجموعة المعلم بنفسه أو يختار لهم مساعدا من تلاميذه النجباء(غنابزية، ع.2007: 75).

كما يتعلم الصبية في هذا المستوى حركات الحروف، مثل الفتحة والضمة والكسرة والسكون، وبعد إتقان هذه الأحرف الأبجدية يتوجهون إلى تعلم الحفظ، حيث يبدؤون بسورة الفاتحة وما يليها من قصار السور، حتى يتعودون على القراءة و يتدربون على الكتابة والحفظ، وحينئذ ينتقلون إلى المستوى الثاني(الأهواني،أ.1983: 58).

– المستوى الثاني:

ويضم هذا المستوى الأطفال أو التلاميذ الكبار والذين تتوفر فيهم بعض الشروط كالقدرة على الحفظ، والكتابة الصحيحة من دون أخطاء، فيتجمعون في شكل حلقة يتصدرها المعلم، حيث يبدأ هذا الأخير الإملاء على جميع الطلبة من اليمين بالتدريج والترتيب رغم اختلاف السور، فيقول التلميذ مثلا: « قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» فيملي عليه المعلم قائلا: « قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ» (الأنعام:12)، ويستمر المعلم في عملية الإملاء وتلقين الطلبة في تناسق عجيب وتفاني كبير ويقوم المعلم بتصحيح أخطاء الكتابة والنطق ثم تبدأ عملية الحفظ صباحا ومساءً (الأهواني،أ.1983: 64).

أما فيما يخص أدوات التعليم التي يستعملها الطلبة في الكُتّاب فهي:

-**اللوح**: ويكون من الخشب وأحسنه الذي يتخذ من شجر الزيتون وهو أهم أدوات الكتابة.

-**الطين**: وهو المادة التي يمحى بها حبر اللوح (الصمغ) بعد حفظ ما فيه من القرآن الكريم.

- **الدواة و القلم**: ويكون القلم من القصب أما الدواة فتكون من الصمغ الذي يحرق ويوضع في دواة ومعه شيء من الصوف والماء حتى يصبح صالحا للكتابة.

-**المصحف**:وهو نسخة من القرآن الكريم يراجع فيه الطالب ما حفظه من القرآن (غنابزية، ع.2007: 73).

ويدعى معلم القرآن بالطالب لأنه يطلب الأجر من الله عز وجل، ويختار المعلم لحفظه الجيد للقرآن الكريم ولصلاحه حيث يلقى معلم القرآن كل أنواع الاحترام و التقدير(غنابزية، ع.2007: 73).

وقد عرفت الزاوية التجانية بقمار منذ نشأتها الكثير من معلمي القرآن ومدرسيه الذين تعاقبوا على تدريس القرآن الكريم وتحفيظه للأجيال، فكان من أوائلهم سيدي عبد الله بدَّة الذي كان من أشهر مدرسي القرآن الكريم بمدينة قمار، حيث كان يقوم بهذه المهمة النبيلة بجامع الطلبة، ومن أشهر المدرسين للقرآن الكريم أيضا بالزاوية العالم الجليل سي إبراهيم زغودة (1845-1930م) (العقون،ت.2013: 18) الذي كرس حياته في خدمة كتاب الله بالزاوية، ومنهم أيضا الطالب سي أحمد بسا(1877-1955م) (العقون،ت.2013: 424) الذي حفظ على يديه الكثير من أبناء المنطقة القرآن الكريم، من أبرزهم الخليفة الشيخ أحمد التجاني التماسيني(غريسي، ع.2013: 55)، ومنهم أيضا الطالب البركة سي الطاهر بسا (1902-1990) (العقون،ت.2013: 140) الذي تخرج على يديه الكثير من حفظة كتاب الله وذلك بالزاوية التجانية بقمار، نذكر من أبرزهم الخليفة الشيخ محمد البشير بن الشيخ محمد العيد التجاني التماسيني (غريسي، ع.2013: 75).

اهتم معلمو وأساتذة الزاوية التجانية بطرق ومناهج التعليم، حيث كان الاهتمام مُنصباً على مبادئ التربية وأدبياتها، فتدريس القرآن الكريم على سبيل المثال اختلفت الكثير من الأقطار الإسلامية في كيفية تدريسه للصبيان، إلا أن الزاوية بقيت محافظة على طريقة أهل المغرب العربي في تدريسه، لأن القرآن الكريم أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل من الملكات، وهذا ما يؤكده ابن خلدون حين يقول:« إعلم أن أهل المغرب يقتصرون على تعليم القرآن فقط، و ما يتعلق به من مسائل ولا يخلطونه بغيره من العلوم، كالحديث والفقه والشعر، أما أهل افريقية فيخلطون تعليم القرآن بالعلوم الأخرى فطريقتهم أقرب إلى طريقة أهل الأندلس » (ابن خلدون، ع: 594).

وحافظ علماء الزاوية على المناهج المتبعة في التدريس، كالتدرج في تلقين العلوم الذي يعد عاملا مهما من عوامل التحصيل العلمي، كما كان علماء الزاوية يراعون درجة الاستيعاب عند طلبتهم أثناء إلقاء دروسهم كل حسب طاقته، فلا يخلطون مسائل التعليم بعضها ببعض حتى لا يقع التشويش على الطلبة، وكان المعلمون يراعون التقاليد المتبعة في إلقاء الدروس، فكانوا يفتتحون دروسهم بالبسملة و

الحمدلة، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما ورد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قاموا بالصلاة والسلام عليه (ابن خلدون، ع: 589).

أما طرق التدريس فقد تعددت بالزاوية التجانية بڤمار، من أستاذ لآخر فكان لكل فقيه أو عالم طريقته الخاصة في تقديم المادة العلمية وفي إلقاء دروسه، حيث عرفت الزاوية طريقتان أساسيتان من طرق التدريس:

- **الطريقة الأولى:**

وهي الطريقة التقليدية، التي تعتمد على التلقين أو ما يسمى بالرواية الشفوية، وهذه الطريقة نجدها عند معلمي القرآن وعلماء الشريعة، كالفقه والتفسير والحديث النبوي الشريف، حيث تعتمد هذه الطريقة اعتمادا كبيرا على الحفظ و التقييد، ومن علماء الزاوية الذين سلكوا هذه الطريقة ودرسوا بها واعتمدوها كمنهج من مناهج التعليم الفقيه لخضر بن أحمد حمانة القماري، و الفقيه المدرس أحمد دغمان القماري الذي كان يعد من أشهر فقهاء المذهب المالكي بوادي سوف، وغيرهم من الفقهاء والعلماء الذين اعتمدوا هذا الأسلوب في تدريسهم (ابن خلدون، ع: 589).

- **الطريقة الثانية:**

وتعتمد هذه الطريقة على الإلقاء مع الشرح و المحاورة، حيث يتولى المدرس أو الفقيه شرح هذه الدروس وتبسيطها للطلبة وقد ساهمت هذه الطريقة في التعليم والتي عرفتها الزاوية التجانية بڤمار من خلال الكثير من المدرسين الذين اعتمدوها في تطوير مناهج التدريس والرقي بالحركة العلمية والفكرية، ومن بين العلماء الذين اشتهروا بهذه الطريقة في التعليم واتخذوها منهجا في تدريسهم، العلامة اللقاني بن السائح الطيباتي(1886- 1970) (الزاهري،م.1926: 30) الذي كان مدرسا للعديد من العلوم كالفقه والتفسير والحديث النبوي الشريف والتاريخ، وذلك بالزاوية التجانية بڤمار و تماسين، حيث كان منهجه في التعليم يعتمد على التجديد من خلال الاعتماد على الحوار والمناقشة، وقد أثنى الخليفة الشيخ سيدي أحمد التجاني التماسيني (1898-1978) كثيرا على أسلوب الشيخ اللقاني في التدريس وعلى أسلوبه التعليمي الجيد ومهاراته في تلقين العلوم النقلية و العقلية، حيث عده من العلماء الذين طوروا طرق و مناهج التدريس، كما كلف الشيخ أحمد التجاني التماسيني العلّامة الصادق التجاني بمواصلة التدريس والتعليم بمنهجية الشيخ اللقاني (Tijaniya,T.2008:26).

ويجب على الأستاذ أو المعلم أن تتوفر فيه بعض الشروط المهمة، كأن يكون وافر العلم مطلعا على أمهات الكتب والمؤلفات، قادرا على العطاء والحفظ والتثبت والصدق والإنصاف، فمن هذا المنطلق

حرص شيوخ الزاوية التجانية على انتقاء أحسن وأجود الأساتذة والفقهاء للتدريس، كالفقيه الشيخ أحمد بن دغمان القماري (التليلي،م: 76) الذي كان مدرسا بمدينة الكاف بالجمهورية التونسية ، فرجع إلى قمار بدعوة من الزاوية التجانية ليتولى التدريس وخطة القضاء، وعلى يديه تخرج الكثير من علماء وفقهاء المنطقة (التليلي،م: 76).

كما كان الكثير من الفقهاء والعلماء الأجانب يحطون رحالهم بزاوية قمار بغرض التدريس و المشاركة في تنشيط الحركة الثقافية بالزاوية، وعلى سبيل المثال نذكر منهم الشيخ سعيد الدوكالي المغربي، والشيخ مناشو التونسي والفقيه عثمان النفطي التونسي(Tijaniya,T.2008:26).

ثالثا-الإنتاج الفكري لعلماء الزاوية بقمار:

حرص شيوخ الزاوية وعلمائها على النهوض بالحركة الفكرية والعلمية بالزاوية، ولهذا الغرض سخر علماء وفقهاء الزاوية كامل طاقاتهم واهتمامهم في سبيل تحقيق هذا الغرض، خاصة إذا علمنا أن أغلب هؤلاء العلماء أخذوا على عاتقهم مشقة التعليم والتفقيه والترشيد، ويمكن حصر النشاط العلمي و الفكري بالزاوية في النقاط الرئيسية الثلاثة الآتية:

01- العلوم الشرعية:

لقد كانت العلوم الشرعية في مقدمة العلوم و الموضوعات التي كان لها النصيب الأكبر من الاهتمام بالزاوية التجانية بقمار، وتشمل العلوم الشرعية الفقه والتفسير وعلم القراءات القرآنية والحديث النبوي الشريف، حيث كانت جميع هذه العلوم تدرس بالزاوية، فالقسم الأكبر من علماء الزاوية كانوا من جملة شيوخ العلوم الشرعية وقد تصدروا للتدريس والإقراء كالشيخ المفتي العلامة لخضر بن أحمد حمانة القماري، وسيدي لخضر نجل سيدي الحاج علي التماسيني، وسيدي محمود حفيد سيدي الحاج علي التماسيني، و الفقيه الشيخ أحمد دغمان القماري الذي ترك الكثير من الفتاوى الفقهية التي تعبر عن آراءه السديدة ومستواه العلمي الراقي، كما قام هذا الأخير بنظم أبيات شرح فيها رموز متن الشاطبية في علم القراءات (الشاطبي،ق.2010: 01)يقول فيها:

بدأت باسم الله صليت ثانيا على المصطفى والآل أيضا وصحبهم

وها هي أبيات تكلفت نظمها ليعرف منها المرء رمز بدورهم

سألتك يا الله يا خير سامع فكن لي معينا في سباحة بحرهم(سعد الله، أ.2014: 284)

ونظم الفقيه أحمد دغمان أحكام البسملة في متن يقول في بعض أبياته:

الحمد لله العظيـم المـــــنن هادي الورى إلى الطريق الأحسن

المـــنزل القرآن بالأحكـــام عـلى لســـان سيـــد الأنـام

وبعد فاعلم أن حكم البسملة قـد وردت فيه نصـوص مجـملة

وختمها بقوله:

فهذه منظـــومة للبسملـــة ذكرت فيهـــا حكمهـــا للنَقَّلـة

كتبـتهـا محتسبـــا للـــه وخادمـــا شـــرع رســـول الله

ومـــن يسل عني فإني أحمـد لقب دُغمـان الدعـــاء يقصد(سعد الله، أ.2014: 91)

والخليفة الشيخ سيدي محمد حمه الذي كان من أبرز مدرسي الفقه المالكي بالزاوية، وغيرهم من العلماء والفقهاء والصلحاء الذين لا يمكن ذكرهم جميعا لكثرتهم.

02 – علوم اللغة العربية:

حظيت علوم اللغة العربية بعناية كبيرة بالزاوية التجانية بقمار لما لها من صلة بعلوم الشريعة، فالنحو والصرف والشعر و البلاغة والعروض كلها تساعد على فهم العلوم الشرعية وتوضيح مقاصد الشريعة، وهذا ما يقوي صلة العلوم الشرعية باللغة العربية ويؤكد الارتباط الكبير بينهما،وقد أحاط علماء الزاوية التجانية بقمار علوم اللغة العربية وآدابها إحاطة تامة ورعوها رعاية خاصة، من حيث التدريس والتأليف والإنتاج الأدبي وقد اشتهر بالزاوية الكثير من الأدباء و الشعراء نذكر منهم على سبيل المثال:

الشاعر الأديب محمد الصالح بن الخوصى (ت1346هـ/ 1927م) (التليلي،م:86) الذي ترك الكثير من القصائد، منها قصيدة يمدح فيها شيخ الطريقة التجانية سيدي أحمد التجاني يقول في بعض أبياتها:

أهـدي ســلاما مكرراً مدى الزمـــان يدور

ومـا نبتت نجـــوم من الليـــالي تسيـــر

ومـــا تلألأ شمـــس ولاح بـــدر منيـــر

إن رمت فوزا بصـدق وَيَنْأَ عنــك العسيــر

فاقصد جناب التجاني غوث همـــام شهيــر

فالله أعطـــاه قــدرا جلّ الكـــريم القديـر(سعد الله، أ.2014: 302)

ومنهم أيضا الفقيه الشاعر محمد بن بلقاسم الزبيري الشهير بسي محمد البُرية (1874-1949م) الذي قضى عمره ناشرا للعلم بزاويتي قمار و تماسين، وكانت له مراسلات أدبية و فقهية مع العديد من العلماء والفقهاء بتونس، خصوصا مفتي الديار التونسية الشيخ البشير النيفر(ابن القاضي،م.1940: 57)، من قصائده قصيدة نونية يمدح بها سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقول فيها:

أخفي الهــوى وتذيعــه أجفاني والشوق من ألـم الجـفــا أفناني

ما العشق إلا الموت مــر طعمه فاحذر أخي وقيت شر سناني

ما لـم تكن في حب مَن مِن أجله شرف الدنيا كالمصطفى العدناني

صلى عليـه الله جـل جـلالـــه ما غرد القمري على الأغصـان

فهناك تحمد في التفاني في الهـوى وتنل بها زلفى لــدى الرحمـان

وتنل شفاعة خير من وطئ الثرى عرب و عجم إنسهـــم و الجان

(التليلي،م:85)

ومن الشعراء الذين امتازوا بشعرهم الرائق ونثرهم الفائق الشاعر الفقيه الشيخ محمد اللقاني بن السائح(ت1970م)، الذي درس بزاوية قمار وترك الكثير من الآثار الأدبية منها العديد من القصائد، كالقصيدة التي يحث فيها على طلب العلم والتزود بالمعرفة حيث يقول:

تعالوا إلى الدين القويم وهديه فإني أرى الإصلاح في سنة الهادي

تعالوا إلى العلم الصحيح فإنه يجدد في الأبنـــاء نهضة بغـداد

تعالوا إلى نشر المعارف بينكم وكونوا على حياضهـــا خير وُراد

فليس بغير العلـم تسعد أمـة ولا بسوى الأخلاق تدرك أيادي

(الزاهري،م.1926: 30)

ويقول في قصيدة أخرى يمدح فيها شيخ الطريقة التجانية بزاوية تماسين:

على الرحب يا من خامر العقل حبه فأسكره شرب المدامـــة في الحب

أزلتـم على القلب المتيـم نـــــاره وألبسته ثوب المهابـــة و العجب

وكانت بكـم أيامنا البيض روضـــة بها نجتني أحلى الثمار مع الصحب

أتيتـم لإسعاد البريـة فلتكـــــن بكـم أمـــة الإسلام مأمونـة الرعب

عليك رضا الرحمـــن مـا قال قائـل أتى زمن الإسعـــــاد يؤذن بالقرب

03-العلوم الاجتماعية و العقلية:

لم يقتصر نشاط العلماء بالزاوية التجانية بڤمار على العلوم الشرعية و اللغوية، بل تعداه إلى العلوم الاجتماعية والعقلية كالفرائض والحساب، والتاريخ والجغرافيا والمنطق، فأولوا عناية كبيرة لهذه العلوم، فجلسوا لتدريسها ونشرها بين طلبة المنطقة، وقاموا بشرح مصنفاتها والتعليق عليها وتبسيط محتواها حتى يسهل فهمها، خاصة إذا علمنا أن أكثر هذه العلوم تحتاج إلى التبسيط والشرح كعلم الفرائض و الحساب والمنطق.

خصائص النشاط الثقافي و الفكري بالزاوية التجانية بڤمار:

يتضح مما تقدم أن أبرز خصائص هذا النشاط الثقافي المتميز تمثل بالنقاط الآتية:

01- وجود كوكبة طيبة من العلماء بالزاوية: أسهمت إسهاما بارزاً في نشر النشاط الثقافي داخل الزاوية وبالمنطقة عموما، حيث تصدر عدد كبير من هؤلاء العلماء للتدريس و الإفتاء في مساجد سوف وزواياها المختلفة، فكانت مجالس العلم عامرة، وأسهم العلماء و الفقهاء في عقدها لتدريس العلوم المختلفة، فقاموا بدور عظيم في سبيل حفظ القيم الإسلامية وتمتين الصلات الثقافية.

02- مؤلفات علماء الزاوية: إلى جانب قيام علماء الزاوية التجانية بالتدريس، كان لهم نشاط متميز لا يقل أهمية عن التدريس والتأليف في مختلف العلوم والمعارف جريا على عادة علماء الأقطار والحواضر العلمية الإسلامية في تخليد أسمائهم بمؤلفات نافعة صنفوها فعرفوا بها، كالفقيه أحمد دغمان الذي ترك بعض المؤلفات منها: «الإجابة بحسم خلاف أسوأ السوأى في الكتابة» (نويهض، ع.1983: 142)، وكالعلامة الشيخ محمد العروسي الذي كتب بعض المصنفات منها: «الكناش» و «المخدرة»(العوامر، إ.2007: 416).

03- الوظائف الجليلة: لم يقتصر نشاط علماء الزاوية التجانية بقمار على التعليم ونشر المعرفة، بل مارس كثير منهم وظائف رفيعة ومناصب إدارية مهمة أدت خدمات جليلة لأبناء المنطقة، وكانت جزءً من النشاط العلمي والفكري الواسع لعلماء الزاوية، و هذا و إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة علماء الزاوية ومستواهم العلمي الراقي الذي بوأهم لتولي هاته المناصب كالقضاء و الإفتاء و الإمامة، ومن هؤلاء العلامة لخضر بن أحمد حمانة الذي تولى الإفتاء، حيث كان أحد المفتين في وقته إضافة إلى تصدره لتدريس الفقه وأصوله، ومن علماء الزاوية الذين تولوا خطة القضاء نذكر منهم العلامة لخضر بن أحمد حمانة السالف الذكر، والعلامة الشيخ أحمد دغمان الذي تولى القضاء بقمار حوالي 14 سنة وفي الوادي نحو السنتين من (1876 إلى سنة 1878م) (سعد الله، أ.2014: 294).

الخاتمة:

لقد كانت هذه أهم آثار علماء الزاوية التجانية بقمار و فقهائها في الميدان الفكري والعلمي، حيث بذلوا مجهودات كبيرة في سبيل نشر مختلف العلوم الدينية و اللغوية، وإن كثرة المجالس العلمية و الفكرية، وغزارة تآليفهم ومشاركتهم في التدريس والتعليم لتدل دلالة واضحة على دورهم في سبيل الرقي بالمجتمع، وجعل الزاوية التجانية منارة وحاضرة من الحواضر العلمية.

المصادر والمراجع:

01-المخطوطات:

-ابن المطماطية،محمود.غرائب البراهين في مناقب صاحب تماسين(مخطوط).

-التليلي،محمد الطاهر.من تاريخ وادي سوف(مخطوط).

-الحجوجي،محمد.نخبة الإتحاف فيمن منحوا من الشيخ التجاني بجميل الأوصاف(مخطوط).

02-المصادر:

-ابن خلدون،عبد الرحمن.(دت).المقدمة (دط).بيروت:دار الجيل.

-الهيثمي،أبوبكر.(دت).مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (دط).بيروت:دار الكتاب العربي.

-الزركلي،خير الدين.(1980).الأعلام (ط05).بيروت:دار العلم للملايين.

-الحجوجي،محمد.(2014).إتحاف أهل المراتب العرفانية (ط01).الرباط:دار الأمان.

-مسلم،النيسابوري.(دت).الجامع الصحيح (دط).القاهرة:دار طيبة.

-سكيرج،أحمد.(2014).كشف الحجاب عمّن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب (ط01).الرباط:دار الأمان.

-السفياني،محمد الطيب.(1969).الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية (ط01).القاهرة:دار الطباعة المحمدية بالأزهر.

-العوامر،إبراهيم.(2007).الصروف في تاريخ الصحراء وسوف (ط01).الجزائر:مطبعة ثالة.

-العلوي،أحمد.(2014).روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر أهل الحقيقة (ط01).الرباط:دار الأمان.

-الرياحي،عمر.(1902).تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي(ط01).تونس:مطبعة بكار وشركائه.
-الشاطبي،القاسم.(2010).متن الشاطبية (ط05).دمشق:دار الغوثاني للدراسات القرءانية.
-التجاني،الصادق.(2015).العرف الرياحيني في ترجمة سيدي الحاج علي التماسيني (ط01).الجزائر:المطبوعات الجميلة.

03-المراجع:

-الأهواني،أحمد فؤاد.(1983).التربية في الإسلام (دط).بيروت:دار المعارف.
-الزاهري،محمد الهادي.(1926).شعراء الجزائر في العصر الحاضر(ط01).تونس:المطبعة التونسية.
-حوالة،يوسف.(2000).الحياة العلمية في إفريقية (ط01).مكة المكرمة:جامعة أم القرى.
-اللولب،حسن حبيب.(2013).الطلبة الجزائريون في البلاد التونسية (ط01).الجزائر:دار سيدي الخير للكتاب.
-نويهض،عادل.(1983).معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر(ط01).بيروت:مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف.
-العقون،التجاني.(2013).أعلام من قمار بوادي سوف (ط01).الوادي:مطبعة سخري.
-غريسي،علي.(2013).أعلام وأختام (ط01).الوادي:مطبعة SIB كوينين.

04-الدوريات:

-ابن القاضي،محمد الشاذلي.(أكتوبر1940).التعريف بالشيخ محمد البشير النيفر.المجلة الزيتونية،(04)،57-60.
-سعد الله،أبو القاسم.(مارس،أفريل2004).فذلكة تاريخية عن منطقة سوف بالجزائر،لمحمد الطاهر التليلي.مجلة العرب،(07-08)،284-302.
-غنابزية،علي.(يناير2007).دراسة تاريخية لمناهج القرءان الكريم بين الماضي والحاضر،مجتمع وادي سوف نموذجاً.مجلة البحوث والدراسات(04)،67-84.

05-الملتقيات:

-عقبة،السعيد.(24،2012-25جانفي).الزاوية التجانية بتماسين ودورها الاجتماعي بالمنطقة خلال القرن19م.بحث مقدم في الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين18-19م، من خلال المصادر المحلية،جامعة الوادي،الجزائر.

06-المراجع الأجنبية:

-La Zaouia tijaniya,Temacine.(2008).Modernité et Continuité(Édition01).El oued: SIB Kouinine.